التجربة الدينية
في شعر أبي الحسن بن الجياب(*)

أ. عبد الحميد بن صخرية
كليـــة الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحاج لخضر. باتنة

مدخل: في الوقت الذي كانت فيه رياح الفتنة تعصف بأركان الحضارة الإسلامية في الأندلس، كانت "غرناطة" آخر قلعة للمسلمين في ذلك الصقع تفتح ذراعيها لاستقبال الفارين من حقد الصليبيين وطغيان النصارى، موطنة نفسها على استلام مشعل الحضارة الإسلامية مسجلة بذلك صفحات ناصعة تحمد لها بالرغم من النهاية المأساوية التي انتهت بها.

فـــي تلـــك الحاضـــرة الجميلة أقام "بنو الأحمـــر" المعروفون "ببني نصر" مملكـــتهم التـــي اســـتمرت زهـــاء قرنين ونصف قرن من الزمان (635 – 898 هـــ).[1]

وفي ظل تلك الإمارة قدر "لابن الجياب" أن يكون وأن يحيا أكثر من خمسين سنـــة.[2] كاتـــبا، ورئيـــس كتـــاب، ووزيـــرا، وشاعـــرا للقصر إلى أن أدركته الوفاة سنة (749 هـــ) في عهد الأمير يوسف ابن إسماعيل بن فرج (733 – 755 هـــ).[3]

كـــان ابـــن الجياب "رحمه الله" متعدد المواهب أثنى عليه أكثر من واحد؛ أثـــنى عليه ابن فرحون[4] ونعته ابن خلدون بشيخ العدوتين في النظم والنثر[5] كما أثـــنى علـــيه تلمـــيذه لسان الدين بن الخطيب ثناءا حسنا يدل على مكانة الرجل إذ يقـــول: "صـــدر الصدور الجلة، وعلم من أعلام الملة، شيخ الكتابة وبنيها، ومتولي أيـــام خدمتها وسنيها، وهاصر أفنان البدائع وجانيها، اعتمدته الرياسة فناء بها على حـــبل ذراعه، واستعانت به السياسة فدارت أملاكها على شباة يراعه وتعاقبت دول العـــدل فلم تر له عديلا، ولا وجدت لسنة اصطباغه تبديلا .. لا يمر الكلام في فن

إلا كـــان له التبريز... وما عسى أن يقال في إمام البلاغة ونور الدياجي الملهمة، والمثل السائر في بعد الصيت وعلو الهمة".[6]

مـــثل هـــذا التقريض والثناء يدل – بلا شك – على علو كعب ابن الجياب وشموخه في ميادين شتى أحسب أنها كافية لإغناء التجربة الفنية لديه وإثرائها، ولا ســـيما تجربـــته الدينـــية التـــي تكونت في ظل إمارة بني الأحمر التي اشتهر عن ســـلاطينها انقـــيادهم للشريعـــة واستمـــاعهم لنصائح الفقهـــاء واهتمـــام بعضهم بالأمور الفقهيـــة والأحكام الشرعية.[7]

مـــن آثار ابن الجياب "ديوان شعري لا يزال مخطوطا، تحتفظ دار الكتب المصـــرية بنسخة فريدة منه تشكو نقصا في الأول والآخر، وفي كثير من صفحات المتـــن. علـــيها وعلـــى المصـــادر التـــي أرخت لهذه الفترة تأسست هذه الدراسة المتواضـــعة التي لا تدعي الإحاطة بكل جوانب التجربة. عن هذه الشخصية الفذة. لكـــثرة الأســـئلة عن التجربة في شعر ابن الجياب، ولكن حسبها نفض الغبار عنها والـــتعريف بها وبشعرها من جهة، وتحريك لبعض الأسئلة عن التجربة الفنية في شعر هذا العلم.

ومن بين هذه الأسئلة إشكالية النص والتجربة، أشكال التعبير عن التجربة، مصادر التجربة، مميزات التجربة الدينية عنده.

أولا – إشكالية النص والتجربة:

مما لا يختلف فيه اثنان أن التجربة هي الركن الأساسي في كل عمل فني، فـــلا فن بدون تجربة لأن الفن هو القدرة على تحويل التجارب الحياتية، إلى إشكال التعبير الفني التي تسمو بجملة من المعايير والقواعد عن التجارب العادية، فالتجربة إفضـــاء بذات النفس بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر أو الفنان إذ لا يمكن أن تصاغ التجربة وأن تقدم في صورة حية إلا إذا بلغ التأثر بصاحبها حدا عظيما وإلا إذا عاش هذه التجربة وامتلأ بها وأحسن تمثلها.[8]

وإذا كـــان الـــتأثر عـــند الشاعر يحيلنا إلى العالم الخارجي بزمانه ومكانه وأحداثـــه وحضـــارته فإن المنطق يفرض علينا أن ندرس التجربة الدينية عند ابن الجـــياب فـــي إطار مفهوم الشعر في القرن الثامن الهجري وما قبله، ذلك المفهوم الذي يعتبر الشعر معرضا للتفنن اللغوي وخدمة لذوي السلطان وترويحا عن النفس في مجالس الأدب والسمر.

وشاعرنا ليس بدعا في ذلك باعتبار تكوينه الثقافي المتنوع ومكانته الإدارية في بلاط بني الأحمر التي تفرض عليه الإخلاص والولاء، والإشادة بمناقب الأمراء الذين عاصرهم والتغني بأمجادهم في السلم والحرب والتسجيل الأمين لأحداث القصر والعصر.

كل هذا جعل موضوعات النظم تتعدد في ديوانه حتى تكاد تشمل كل أغراض النثر، وبخاصة الموضوعات العرضية التي تتحدث عن حاجات الإنسان اليومية، وما تقع عليه عينه، كوصف الفاكهة والنبات، والنظم في الأحاجي والألغاز، أو في تقريض كتاب مفيد، أو في التهنئة بمولود، يقول عنه تلميذه لسان الدين بن الخطيب: "وكان رحمه الله مولعا بالألغاز يفاكهنا بطرفها أكثر الأوقات، ويرى أن طريقها في اللغو أسلم الطرقات، فيشغلنا بحلوائها عن أعراض الألسنة وأهدافها".(9)

وكل هذه الموضوعات العرضية سنتجاوزها بالدراسة لأن التجربة الفنية فيها تجربة حسية باردة تعكس الأشياء الخارجية في رتابة وسطحية، في لغة باردة لأن الانفعال بها سطحي وآثار التصنع والتكلف فيها واضحة ومثل هذا الخطاب يعجز أن يكون شعرا لافتقاده السمات الجمالية.

أما التجارب التي قصدت الدراسة الوقوف عندها فهي تلك التجارب الناجحة التي تتخطى رتابة الواقع وسطحيته وتتجاوز مقياس العقل ودقته، لتدخل منطقة ينصهر فيها العقلي والوجداني ويتحد فيها الشكل بالمضمون، والصور بالأفكار، وتكون سببا في ميلاد "تلك الصور التي تزيد من وعينا بأنفسنا وحياتنا".(10)

وهذا النوع من التجارب يفوق النوع الأول ويطغى عليه في الديوان كما وكيفا.

ثانيا – أشكال التعبير عن التجربة:

1) القصيد الطويل.
2) المعشرات النبوية.
3) مخمسات المعشرات.

الشكل الأول: ويضم مدائح الشاعر لملوك بني الأحمر في مناسبات دينية (عيد الفطر المبارك، عيد الأضحى، المولد النبوي الشريف)، ومناسبات وطنية (انتصار

في معركة، فتح ثغر من الثغور وتجهيز جيش وإعداد عدة). ولا تكاد تخلو مدحة من هذه المدائح من تمجيد الجانب الديني في ذات الممدوح الذي يرى فيه الشاعر عاضد الدين وحاميه يجاهد الكفر ويقتدي بسنن النبي ﷺ في العدل بين الرعية، ونشر الأمن في ربوع الإمارة، على نحو ما نلحظه في هذه الأبيات وهي من قصيد طويل في المدح والتهنئة بعيد الفطر أنشدها سنة 740 هـ في مدح أمير المسلمين أبي الحجاج.[11]

مهما تجلى وجهك المسعود فالدهر أجمعه لنا بك عيد
والملك منصور الجيوش مظفر والدين ممنوع الحمى معضود
والكفر مغلول العزائم خاسر كاب[أ] على أعقابه مردود

فالتجربة تقوم على مرتكزات دينية إن في انتماء الدوال إلى الحقل الديني "العيد، الدين، الكفر، الخسران، الأعقاب"، وإن في استغلاله لإمكانات اللغة بتوظيفه الناجح لصيغ اسم المفعول "منصور، مظفر، مخلوع، مغلول، مردود" بما تحمله من دلالة وقوع الحدث بقوة خفية جعلت النصر والظفر، والمنع أمورا مقضية. فإذا أضفت إلى ذلك ما يتصف به الاسم من ثبات وما في ذلك من إشارة إلى ثبات كل الصفات التي ذكرها في الممدوح، تيقنت أنك أمام خطاب شعري تآزرت بناه والتحمت عناصر الشعر فيه.

فإذا ماعبق التاريخ بأريجه العطر، وهبت أنسام الفجر البليلة على "طيبة" الفيحاء، موطن الأنصار الأماجد أجداد الممدوح[12] رأيت الشاعر يهرع إلى التاريخ يمتاح منه صورا مشرقة لأجداد الممدوح (الخزرج) على عادة الشعراء القدماء يقول:[13]

عيد وكل زماننا بك عيد للدين والدنيا به تمهيد
فالأمن قد عم البلاد وأهلها وضفا عليه ظله الممدود
والجود قد غمر البسيطة فيضه فبكل صقع بحره مورود
والنصر قد وضحت أعلامه حقا وفتّح بابه المسدود

إن فرحة الشاعر بالعيد تضاعفت بوجوده في ظل الممدوح الذي أرسى دعائم الإمارة على الدين الحنيف، فصارت كل الأيام أعيادا لانتفاء ما يعكر صفوها ويكدرها فظل الأمن ممدود وفيض جوده بحر مورود، وأعلام النصر تعلو في كل

صـــقع خفاقة فأكرم به من رجل جمع المحامد طريفها وتليدها، أبوة وجدودا تقوى وجودا:[14]

لا فخر إلا أنـــت جامـــع شملـــه ... منـــه لـــك المكسوب والمولود
أما القديم فخـــزرج الفخر الألـــى ... لهـــم طـــريـــف مكارم وتليد
قبل النبـــوة لـــم يزالـــوا ســـادة ... أمـــلاك عـــز والأنـــام عبيد
حتى إذا بعـــث الرسول محمـــد ... وبـــدا لصبح الحق منه عمود
سعـــدت به أبنـــاء قبيـــلة رحمة ... سبقـــوا إليـــها والسعيد سعيد
أمـــوالهـــم مبذولـــة وسيـــوفهم ... مسلولـــة ومقامهـــم مشهـــود

لقد نجح الشاعر في تحويل مناسبة العيد إلى تجربة فنية التحمت فيها أنوار الديـــن بحقـــائق التاريخ الإسلامي، في صورة لممدوح يجمع كل الخلال والمناقب الماديـــة والمعنوية، أصل زاكي، وطهر في الأرومة، وسبق في احتضان الدعوة، وكـــرم فـــي الضـــيافة. صـــورة لممدوح أقام الدين فتحققت في ظله شروط الحياة الكـــريمة (عـــدل، أمن، خير، نصر) التي أشار إليها في مقدمة القصيد، وكثيرا ما يـــتجاوز الشـــاعر المســـتوى الحسي إلى مستوى الرمز كما هو الحال في مقدمة القصـــيدة التـــي مدح بها أمير المسلمين الغالب بالله أبا عبيد الله المخلوع (701 – 708 هـــ):[15]

زارت تجـــــرر نخـــوة أذيـــالـــها ... هيهـــات تخلـــط بالنـــفار دلالـــها
والشمس من حســـد لـــها مصفـــرة ... إذ قصرت عـــن أن تكـــون مثالها
وافتـــك تمـــزج لينـــها بقـــساوة ... قد أدرجت طـــي العتـــاب نوالـــها
كـــم رمـــت كتـــم مزارهـــا لكنه ... صحـــت دلائـــل لـــم تطق إعلالها

ترى من تكون هذه الزائـــرة الفاتنـــة التي تغار منها الشمس وتحسدها؟ وما سر عتابها للممدوح؟ أهي من عرائس الإنس أم من عرائس الشعر؟.

رويـــدك لا تعجل ففي قسمات التعبير اللغوي ما يكشف القناع ويبدد حيرة التســـاؤل: عد إلى معاني "النخوة، والنفار[أ]، واللين، والقساوة"، وأسند دلالاتها إلى عـــروس الإنس تجد في ذلك نبوا عن الذوق وإفسادا لصورة العروس البهية. اعدل عـــن ذاك – إذن – وأســـند دلالات الـــدوال الســـابقة إلى أمر معنوي وليكن لفظ

أ – النفـــار: الحـــران.

(الخلافة)، وتأمل كيف يصير جموحها طيعا للممدوح، وعتابها حقا مشروعا لإعراض الخليفة عنها.

إنها تجربة تدهش القارئ وتحيره لتشابك العلاقات بين العناصر المكونة لها، وإنزياحها عن المعنى الإشاري على الرغم من تقاطع المعنى فيها مع قول مروان بن أبي حفصة:[16]

طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها

ومع قول بشار بن برد:[17]

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها

ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وهو تقاطع لا يتحرج منه الشاعر ولا يخفيه بل يصرح به، ولاسيما حين ينبري للمدح النبوي يقول:[18]

حب الرسول المصطفى وسيلتي وعدتي ليومي المشهود

وشاعراه قدوتي في مدحه كعب وحسان وأبو الوليد

وكثيرا ما يمزج الشاعر في قصيدة واحدة بين المديح النبوي الذي شاع في عصر الشاعر بكثرة وبين مدح ملوك بني الأحمر.

يبدأ قصيدته بمقدمة في النسيب، ثم ينبري لمدح الرسول الكريم حتى إذا أتى على كثير من معجزاته باشر مدح الملك أو صاحب الشأن، يقول من قصيدة طويلة:[19]

لاحت لمطلعه قصور الشام من أبيات مكة أفضل الأبيات

وارتج إيوان كسرى فاغتدى بنيانه متساقط الشرفات

والجذع حن تلهفا لفراقه والطور زلزل بعد طول ثبات

في معجزات ليس يحصى عدها صحت بنقل رواتها الأثبات

إلى أن يقول متخلصا للمديح بطريقة بارعة:[20]

قد قام ميلاد الرسول مبجلا ومكرما ومعظم الحرمات

في حضرة نصرية متت إلى ذاك الجناب الرحب صدق متات

لله منها دار ملك شرفت بأسد غاب للذمار حماة

قاموا بنصر الدين إذ لا ناصر من بأس أعداء عليه عداة

مثل هذا النموذج كثير في ديوان الشاعر، يجري على نسق واحد، توجع وحنين إلى حمى الحجاز عبر البرق والنسيم والركب في مقدمة القصيدة، ثم التغني

بفضائل النبي ومعجزاته ومكانته والصلاة عليه في صلب القصيد، ثم مدح لصاحب الشأن بإقامته الدين ونشر العدل بين الرعية وغير ذلك من الصفات.

الشكل الثاني – المعشرات النبويـــة:

وهي الشكل التعبيري الثاني الذي احتضن تجربة الشاعر الدينية بعد القصيد الطويل. والمعشرات مصطلح يطلق على مقطوعات شعرية من عشرة أبيات كل بيت منها يبتدئ بحرف القافية[21] وتبلغ في ديوان ابن الجياب ثمان وعشرين معشرة، مرتبة على حروف المعجم.

وتعد من أنجح التجارب الدينية لصدورها عن نفس شاعر كبير، أدرك حقيقة الحياة في تلونها وتفاهتها، وقصر المسافة بين بدايتها ونهايتها، فانكفأ على نفسه يعاتبها ويدعوها إلى الإنابة والإفاقة قبل فوات الأوان.

وقد سار في بناء المعشرات على نهج ثابت: مقدمة في عتاب النفس على ما فرطت في جنب الله، ثم مدح للرسول الكريم والتعرض لبعض معجزاته وخاتمة تنفتح على التوسل والأمل في الشفاعة وقبول التوبة.

ولاستحالة التعرض إلى كل المعشرات التي تحتاج إلى دراسة مستقلة نكتفي بهذا النموذج (لحرف الثاء):[22]

ثبت على عهد الصبا غير ناكث[أ] وبادرت مهـواة الهـوى غير رائث[ب]

ثقيـل عليك الجد من نهي ناصح خفيـف عليـك الهزل من سعي عابث

ثنيـت إلـى الدنيا العنـان جهالة تمسـك منـها بالحبـال الرثـائـث[ج]

ثلاثـا فطلقـتها ولا تنو رجعـة لها فـهي فـي التحقيـق أم الخبـائث

ثكلـت فما وفيـت حقـا لسائـل ولكن جمعت الـمال حطـما لـوارث

ثراؤك فقر والغنى مدح من هدى وسـاد بني سـام وحـام ويافـث[د]

ثمار المنى تجنى بجـاه محمـد إذا أعضلت[هـ] يوما دواهي[و] الحوادث

أ – ناكـــث: الناقض للعهد وفي التنزيل: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ التوبة 12.

ب – غير رائث: غير مقصر.

ج – الـرثائـث: الباليـة.

د – سام وحام ويافث: أبناء نوح عليه السلام.

هـ – أعضلـت: عسرت واشتدت.

و – دواهي: يقال دواهي الدهر: ما يصيب الناس من عظيم النوب والمصائب.

ثناء كما هب النسيم غدية فجرر ذيلا بالرياض الدمائث(ي)
ثواقب آيات له أعجز الورى بها كاحتجاب عن عدو مباحث
ثوابي مضمون بشرط اتباعه على الملك الأعلى مميتي وباعثي

تبدأ المعشرة بأسلوب "التجريد"[23] ليكون الخطاب عاما يشمل كل الذوات الراتعة في ميعة الصبا، بالإضافة إلى ما في الشطر الأول من دلالة أسلوب المدح بما يشبه الذم في كون الذات لا تريد نكث العهد مع الصبا والعكس أجدر بها. إنها ذات جموح لا تقصر عن نزواتها، تستثقل الجدّ والنصح، وتميل إلى الهزل والعبث، تثني عنانها إلى الدنيا وهي في الحقيقة أم الخبائث؛ غرور وأي غرور لمن يريد النجاة وهو يتشبث بحبال بالية واهية.

مقدمة تصوير تغلغل الدين وتعاليمه في أعماق الشاعر وانعكاس ذلك على بنية التجربة التي توشحت بوشاح الزهد في الحياة التي صورها الشاعر مرة فرسا جموحا تلقي بالفارس الغر في أول الطريق، ومرة أنثى لا تطاق عشرتها يحل طلاقها طلاقا بائنا.

وخاتمة تعبق بذكر المصطفى، وتلهج بخصاله ومعجزاته الغراء، كإشارته في البيت التاسع من المعشرة إلى معجزة الرسول عليه السلام مع أبي بكر في غار ثور إذ يقول:[24]

ثواقب آيات له أعجز الورى بها كاحتجاب عن عدو مباحث

إن الإعراض عن الدنيا من قبل الشاعر في هذه التجربة دعوة في المقابل إلى التمسك بحبل الله المتين الذي يقوم على التقوى والورع والتزود للدار الباقية: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[25] لأن الاطمئنان إلى الدنيا ناشئ من الاغترار بآمالها الكاذبة التي يركن إليها المرء فتصرفه عن الإنابة إلى جوار الله.

الشكل الثالث – مخمسات المعشرات:

وهي أن يبني الشاعر قصيدته على بحر قصيدة قديمة ويدخلها فيه، يضع ثلاثة أشطر ينظمها ويلتزم فيها قافية الشطر الأول من القصيدة القديمة، ثم يورد قافية القصيدة القديمة قافية لكل خامس شطر من القصيدة الجديدة.[26]

ي – الرياض الدمائث: الرياض السهلة اللينة الناعمة.

والمخمسات في ديوان ابن الجياب بعدد المعشرات النبوية يجري التخميس فيها على حروف المعجم، فالمعشرة ذات القافية (الثائية) مثلا تتلوها مباشرة مخمستها على النحو التالي:[27]

حديث قديم في الورى غير حادث تـرام على دار الخطوب الكوارث
فيا باحثا عن حتفه أي باحث "ثبت على عهد الصبا غير ناكث"
"وبادرت مهواة اللهو غير رائث"

سريعا إلى داع من الغي فاضح ألوفا لأفاك عن الرشد جامح
نفورا بقلب للبطالة جانح "ثقيلا عليك الجد من نهي ناصح"
"خفيفا لديك الحفول منم سعي عابث"

فما بين الأقواس، أشطر من المعشرة السابقة، هكذا تمضي المخمسة إلى أن يأتي الشاعر فيها على جميع أشطر المعشرة. وبناء المخمسات ومضمونها لا يختلفان عن بناء المعشرات ومضمونها، حيث تبدأ هي الأخرى بمقدمة في الإعراض عن الدنيا وزخرفها، يليها مديح في المصطفى وفي ذكر بعض معجزاته، وخاتمة في الإنابة والتوسل، وطلب الشفاعة، يقول:[28]

يا سيد الخلق العظيم مزية مديحك قد أعيي البليغ روية
وهل ترك الذكر الحكيم بقية "ثناء كما هب النسيم غدية"
"فجرر ذيلا بالرياض الدمائث"

ترى ما هي العوامل التي تقف وراء انغماس الشاعر في حياة الزهد، أهو التكوين الثقافي الذي كان يعتمد في عصر الشاعر على العلوم الشرعية بالدرجة الأولى، وعلى التاريخ الإسلامي؟ أم هي الشيخوخة، والكبر، والإحساس باقتراب شبح الموت؟ أم هو الإحباط النفسي والانكفاء على الذات لما آلت إليه حال الأندلس من تفكك بعد سقوط دول الطوائف.

لعل اجتماع هذه العوامل هي الباعث الأساسي في حب الخلاص عند الشاعر من غوائل الحياة، والزهد في متاع الدنيا والتقليل منها، لأنها خؤون لا تثبت على حال:[29]

تراءت لك الدنيا الخؤون فحلت عرى توبة أبرمتها فاضمحلت

تكلفتها حتى إذا ما اقتنصتها محت أم دفر[أ] رسمها إذ تجلت

لقد تعلق الشاعر بالآخرة وصار كل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة جاعلا من حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام وصحابته الأخيار، محرابا يتعبد فيه، ونبراسا يبدد دياجير النفس وأدرانها.

هذا النبراس لم يلبث أن تحول إلى حب إلهي يملأ قلب الشاعر وكيانه:[30]

تدعي الحب ثم تنسى الحبيبا لست فيما ادعيت إلا كذوبا

إنما الحب أخذة تملك القلب جميعا فليس تبقى نصيبا

هذا الحب الإلهي الذي يدخل في مجال التصوف الإسلامي يحتاج إلى دراسة مستقلة هي التي سيسعى الباحث متى اجتمعت لديه مقوماتها إلى الكتابة حولها مستقبلا.

ثالثا: مصادر التجربة عند الشاعر:

أشرنا في أثناء الحديث عن إشكالية النص والتجربة أن مقياس النجاح يكمن في التحام عناصر التجربة بذات الشاعر تأثرا وتمثلا، وأومأنا إلى الروح الدينية التي كانت تطبع عصر الشاعر ولذلك فلا غرو أن تصطبغ التجربة عنده بروح الثقافة الإسلامية.

ويمثل القرآن الكريم المعين الصافي الذي ارتوت منه التجربة الدينية عند الشاعر، فقوله[31]:

توبوا عباد الله توبة مخلص لله تمحوبالمتاب الحوبا

متأثر فيه بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا"[32]

وقوله[33]:

واستقبلوا للنصر وجها مبديا فتحا كما وصف الكتاب قريبا

متأثر فيه بقوله تعالى: "نصر من الله وفتح قريب"[34]

وقوله[35]:

الحمد لله حمدا أبدا سبحانه وتعالى فردا صمدا

ولا إله سواه حسبنا والله أكبر لم يولد ولا ولدا

متأثر فيه بسورة الإخلاص.

أ – أم دفر: الدنيا.

والتأثر بالقرآن الكريم عند الشاعر يتغلغل في جميع الموضوعات التي طرقها حتى أن عددا منها ليس بالقليل كان يرد أحيانا في قصيدة واحدة، وقد قاده ذلك إلى الاهتمام بمشاهد الحياة الآخرة التي تشكل جانبا من جوانب العقيدة الإسلامية.

المعين الثاني الذي استندت إليه التجربة الدينية عند الشاعر المادة التاريخية التي تمثلت في السيرة النبوية العطرة وهي من العناصر الأساسية المكونة للثقافة الإسلامية، فعطرها يفوح في جميع الموضوعات الشعرية لا سيما في المديح، والمعشرات النبوية، ومخمساتها.

وكلها موضوعات تستدعي الحديث عن معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام كما في قوله يذكر الإرهاصات التي سبقت البعثة النبوية ومهدت لها مشيرا إلى الأنوار الساطعة التي رافقت مولده فأضاءت لها قصور الشام، وتصدع إيوان كسرى، وتساقط بعض شرفاته. وخمود النار المقدسة المعروفة في الديانة الزيرادشتية معرجا على قصةإرضاع حليمة السعدية له وما رأته من آيات وعبر[35]

لا حت لمطلعـــه قصور الشام من ... أبيات مكـــة أفضـــل الآيات
وارتـــج إيوان كســـرى فاغتـــدى ... بنيانه متساقـــــط الشرفـــات
وخبـــت للفـــرس نـــار ما خبـــت ... من قبل في وقت من الأوقات
وحليمـــة لمـــا غـــدت ضئـــرا له ... قد شاهدت عبـــرا من الآيات

وكثيرا ما كان الشاعر يعود إلى التاريخ العربي القديم ليستوحي منه الصور ولا سيما تاريخ (الخزرج) في الجاهلية والإسلام، لعلاقة ذلك بأرومة ممدوحيه (بني نصر) مركزا على أعلام التاريخ الإسلامي ومواقفهم المشرفة.

أما التأثر بالتراث الشعري القديم فسمة لا يختص بها وحده بل هي عامة عند الشعراء، وقد سبقت الإشارة إلى تصريح الشاعر باقتفائه آثار كعب بن زهير، وحسان بن ثابت في المديح النبوي.[36]

وإذا كانت المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف كما يرى الدكتور زكي مبارك[37] لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالحب والصدق والإخلاص، وهو ما يتجلى بوضوح في المديح النبوي عند شاعرنا فإنه يجوز لنا القول بأن النزعة الصوفية عند الشاعر تمثل رافدا مهما في إثراء التجربة الدينية

وتعميقها إذ من المعلوم أن التصوف السني يستمد أصوله ومصادره من القرآن الكريم والحديث وآراء الصحابة والزهاد من المسلمين.

رابعا: مميزات التجربة:

تفرض علينا النظرة الموضوعية المبادرة إلى القول بأن استخلاص المميزات الفنية لتجربة الشاعر الدينية أمر لا قبل للدراسة به، لنقص في الأسس البنائية لها لأن الدراسة لم تقم على شعره كله. ولكن هذا لا يمنع من تسجيل بعض المميزات التي لوحظت في أثناء الدراسة وأول تلك المميزات استحالة الفصل بين حياة الشاعر وتجربته الدينية فكل منهما صدى للآخر، تقرأ شعره فتحس بالورع والزهد والتقوى وراء كل تعبير وصورة، وتستمع لكتب التراجم تحدثك عن حياة الرجل فلا ترى فيها إلا ورعا وتقوى وصلاحا.

الميزة الثانية للتجربة عنده تتمثل في التفاوت الفني للتجربة بين المباشرة والتقريرية في الموضوعات العرضية وبين الإيحاء والعمق في الموضوعات الذاتية.

أما الميزة الثالثة فتتمثل في التكرار للمعاني الشعرية والعبارات اللغوية من قصيدة إلى قصيدة كما هو الحال في شعر المناسبات الدينية ومدحه لآل نصر، وقد أدى به التكرار إلى إغراق التجربة بالصناعة والتصنع والاهتمام بالزينة الشكلية رغم أن كل ذلك من سمات العصر وقد نتج عن ذلك تفننه في الأشكال التعبيرية التي احتوت تجربته الدينية بين القصيد الطويل، والمقطوعة، والمعشرة والمخمسة.

لقد أصبح جليا أن الجانب الروحي هو المنبع الذي تغرف منه تجربة شاعرنا عناصرها وموادها وألوانها إلى جانب المادة التاريخية التي تتجلى في الأساليب التي يسرد الشاعر من خلالها معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذا القيم العاطفية، التي تصور التلون العاطفي من قصيدة إلى قصيدة بل من صورة إلى صورة.

وقد توسل الشاعر إلى إبراز ذلك بجملة من الأدوات الفنية؛ تنويع في الأساليب الخبرية والإنشائية بحسب المواقف مع مراعاة حالة المخاطب، وما يحتاجه من أنواع الخطاب والاستعانة بأساليب البيان للعبور بالمعنى من الحيّز الإشاري المباشر، إلى الإيحاء الدلالي دون أن ننسى عنايته بالجرس الإيقاعي.

هذه هي بعض الأجوبة للأسئلة التي طرحناها في بداية الدراسة وهي بالتأكيد أجوبة تحتاج إلى دراسة أعمق حين ينشر الديوان المخطوط، إن شاء الله.

الهوامش:

(*) اشتهر كتاب الدولة النصرية في القرن الثامن الهجري (673 - 749 هـ)، شيخ طلبة الأندلس، رواية وتحقيقا ومشاركة في كثير من العلوم.
راجع ترجمته في الكتيبة الكامنة/183، وأعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن/125 والديباج المذهب: 207/2.

(1) - راجع الباب الثالث من كتاب أعلام المغرب والأندلس، في القرن الثامن لابن الأحمر/ 77 تحقيق، د/محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2. 1987.

(2) - نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لابن الأحمر/20، دراسة وتحقيق د/محمد رضوان الداية، دار النهضة، بيروت، 1967.

(3) - نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لابن الأحمر/21.

(4) - الديباج المهذب في معرفة علماء المذهب، لابن فرحون المالكي، 11/2، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة التراث، القاهرة.

(5) - لسان الدين بن الخطيب، حياته وفكره وشعره/44، للدكتور: عصام قصبجي، منشورات جامعة حلب، 1983.

(6) - الكتيبة الكامنة: 184/183.

(7) - نثير فرائد الجمان: 22 وما بعدها.

(8) - قضايا النقد الأدبي، بين القديم والحديث للدكتور محمد زكي العشماوي: 12 دار النهضة بيروت 1979.

(9) - الكتيبة الكامنة: 184.

(10) - محاضرات في عنصر الصدق الأدب، د/محمد النويهي/23، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية، 1959.

(11) - ديوان أبي الحسن بن الجياب، مخطوط، 66/65.

(12) - راجع تاريخ بني الأحمر: نثير فرائد الجمان لابن الأحمر.

(13) - الديوان المخطوط: 38.

(14) - المصدر نفسه: 39.

(15) - أعلام المغرب والأندلس: 117/116.

(16) - الأغاني: 85/10، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1983.

(17) - العصر العباسي الأول، د/شوقي ضيف: 148، دار المعارف.

(18) - الديوان: 61/60، والمقصود بالشاعرين: كعب بن زهير، وحسان بن ثابت.

(19) - الديوان: 17.

(20) - الديوان: 19/18.

(21) - قـامـوس المصـطلحات اللغويـة والأدبـية، د/اميل يعقوب واخران، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987، ص 136.

(22) - الديوان: 20.

(23) - هو أن يجـرد الشاعر من ذاته ذاتا ويخاطبها.

(24) - الزبدة في شرح البردة، بدر الدين الغزي: 95، حققها وقدم لها: د/عمر موسى باشا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1972.

(25) - سورة الأعلى: الاية 17.

(26) - المعجم الأدبي: جبور عبد النور: 61، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى 1979.

(27) - الديوان: 21.

(28) - الديوان: 22.

(29) - الديوان: 17.

(30) - الديوان: 18.

(31) - الديوان: 05.

(32) - سورة التحرير: الآية 08 .

(33) - الديوان: 05.

(34) - سورة الصف: الآية 13.

(35) - الزبدة في شرح البردة:ص 13 وما بعدها، وانظر الأبيات في الديوان: 17.

(36) - أنظر صفحة 05 من هذا البحث.

(37) – المدائح النبوية في الأدب العربي ص 17 –منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.